

(1782-1814م)

الإصلاحات الاجتماعية بإيالة تونس في عهد حمودة باشا

(1782-1814م)

رزيقة محمدي

جامعة أبو القاسم سعد الله - جامعة الجزائر 2-

**The social reforms of Tunisia regency during Hamouda
Bacha governemen (1782-1814)**

Mohammedi Razika

University of Algeria -2-

mohammedirazika86@gmail.com

تاريخ القبول: 06/02/2022

تاريخ الاستلام: 26/11/2021

الملخص بالعربية:

يطمح هذا البحث الى تسليط الضوء على واقع إصلاحات الباي الحسيني "حمودة باشا" (1782 - 1814م) ، ونخصّ بالذكر إصلاحاته في المجال الاجتماعي، فقد بذل هذا الأخير قصار جهده من اجل النهوض بالإيالة دولة وشعبا ، والمعروف أن الدولة لا يقوم لها قائمة إلا إذا اعتنينا بمجتمعها ولا وجود للأولى بدون الثانية والعكس صحيح . ومن هذا المنطلق اتجهت أنظار الباي إلى إصلاح مجتمعه بالرغم من الصعوبات التي اعترضته أثناء اعتلائه العرش (أزمة مالية حادة ، أوبئة ، مجاعات ، قحط...) ، فقد

(1782-1814م)

حاول أن يغرس فيه الفضائل الحميدة ومحاربة الذميمة منها وكان ذلك من خلال اتخاذ تدابير وإجراءات صارمة ، والهدف من ذلك هو تغيير بعض المظاهر الاجتماعية السيئة التي كانت سائدة في البلاد آنذاك.

كما كان الباي مهتما بالشؤون الصحية لرعيته، والدليل على ذلك تلك الإجراءات التي اتخذها لمواجهة الأوبئة التي ضربت الإيالة، فكان لا يتردد في الأخذ بالنصائح التي كانت توجه إليه من طرف أطبائه الخواص، وتطبيقها بحذافيرها . وفي خضم كل هذه الإصلاحات لم يغفل الباي طبقة العلماء الذين كانوا يمثلون ركيزة الحياة الثقافية والفكرية فقد أعارهم اهتماما كبيرا مواصلا في ذلك سيرة والده "علي باي" (1759 - 1782م) الكلمات الدالة: حمودة باشا / إيالة تونس / الإصلاحات / المجتمع / الحسيني .

Abstract:

This reasearch aspires to highlight the reality of “El Bey Hamouda Bacha” reforms, especially in the social field. He made his best for the advancement of the state and the people. As it’s known the basis of any state is its community furthermore, they complete each other. From that logic all the attention of :El Bey was based on reforming his community though the difficulties he faced when he ascended the throne (a severe financial crisis ,epidemics, Famine,drought). He tried to instill in it all the good virtues and fight the bad ones.

(1782-1814م)

Through taking some strict procedures and this is to change some bad social aspects, that were prevalent at that time. In addition, El Bey was interested by the health affairs, he faced all the epidemics which hit his community. He listened to his specialist and doctors advice and applied their strictly. He also followed his father's "Ali Bey" (1759-1782) by giving a great importance to the scientists who represented the pillar of the cultural and intellectual life.

Keys words: Hamouda Bacha/ reforms/ Tunisia regency/socil /Houseyns .

1. المقدمة:

تعتبر النهضة التي عرفتها أوروبا أواخر القرن 15م وبداية القرن 16م منعرجا حاسما في تاريخ الفترة الحديثة، وهذا لما أحدثته من موجة تغييرات على جميع الأصعدة، وتعتبر الدولة العثمانية من الدول التي تأثرت بتلك التغييرات. فأصبح لابد عليها من مواكبة الحدث والالتحاق بالركب، تجسد ذلك في جملة من الإصلاحات التي مست مختلف المجالات (سياسيا، إداريا، اجتماعيا، اقتصاديا ...).

والحديث عن الدولة العثمانية وإصلاحاتها، يدفعنا للإشارة إلى إحدى إيالاتها، ألا وهي إيالة تونس، التي هي الأخرى لم تكن بمعزل عن ما كان يجري في العالم، حيث كانت من أوائل الدول العربية التي عرفت موجة إصلاح فكرية وسياسية. وذلك في نهاية

(1782-1814م)

القرن 18م وبداية القرن 19م، عن طريق إرادة سياسة طموحة من حاكمها "حمودة باشا" (1782 - 1814م) وتجسدت في منظومة إصلاحية للإيالة التونسية.

ظلت الدراسات التي تتعرض لتاريخ تونس الحديث، ولمدة طويلة تشير إلى أن الإصلاحات في إيالة تونس تعود إلى منشئها الباي "أحمد باشا" (1837-1855م)، ثم بعد ذلك في عهد "المشير محمد الصادق باي" (1859-1882م) على يد وزيره "خير الدين التونسي". لكن مع صدور الأبحاث الجديدة التي أعادت النظر إلى تاريخ بداية الإصلاحات بإيالة تونس ، ومن بينها تلك التي قدمها الأستاذ "رشاد الامام" تحت عنوان "سياسة حمودة باشا في تونس (1782 - 1814م)"، أثبتت أن فترة حكم "حمودة باشا" من أزهى عصور التاريخ التونسي الحديث، فالدارسون لهذه الفترة يجدونها حافلة بالعديد من الخصائص التي ميزتها عن الفترات السابقة . فقد كانت فترته رمزا للتقدم والازدهار في شتى المجالات. حتى أن الكثير من المؤرخين أطلقوا على فترة حكم هذا الباي "بالفترة الذهبية" .

وفي هذا الإطار تدرج دراستنا الموسومة " بالإصلاحات الاجتماعية بإيالة تونس في عهد حمودة باشا"، هذه الدراسة التي تهدف بالدرجة الأولى إلى معرفة جهود الباي في المجال الاجتماعي للنهوض بالإيالة وتحسين أوضاع البلاد والعباد في ظل سياسة داخلية ظروفها ملائمة أحيانا وصعبة أحيانا أخرى. وبالتالي فإن الإشكالية الجوهرية تقوم على إمطة اللثام على الجانب الاجتماعي في عهد الباي "حمودة باشا"، وما

(1782-1814م)

الجديد الذي أتى به، وهل نجحت تلك الإصلاحات وإلى أي مدى تجاوب الأهالي معها ؟

وللإجابة على هذه التساؤلات وغيرها كان لا بد علينا إتباع المنهج التاريخي التركيبي، مبني على التحليل والاستنباط .

2. الظروف التي تولى فيها حمودة باشا الحكم والصعوبات التي واجهها للشروع في إصلاحاته :

لم يكن من السهل أن يعزز حمودة باشا إمكانات البلاد الاقتصادية نظرا للظروف الصعبة التي كانت تعاني منها الدولة.

أولها : العجز الذي كانت تعانيه خزانة الدولة أثناء تولي حمودة باشا الحكم¹ حيث وجدها في وضعية حرجة عبّر عنها حمودة باشا في رسالة وجهها بخط يده إلى زوج شقيقته " إسماعيل كاهية" يُعلمه فيها بأنه وجه إليه المال الذي طلبه منه وأنه تعذر عليه ذلك سابقا لعدم توفر المال وطلب منه في آخر الرسالة إحراقها لأنه تخوف من أن يطلع عليها الآخرين وبالتالي انكشاف الوضع المالي الذي كان سائدا في البلاد تخوفا من أي اضطرابات².

(1782-1814م)

ثانيها: الكوارث الطبيعية والمجاعات والأوبئة التي عرفتها تونس خلال فترة حكم حمودة و التي امتدت على طول الفترة (1784-1800م) والتي أثرت كثيرا على البلاد والعباد³.

بالإضافة إلى القحط الذي أصاب البلاد سنتي 1803-1804م، وهذا ما أدى إلى حدوث المجاعة الكبرى⁴ ويذكر "ابن أبي الضياف" انه في هذه السنة "احتبس الغيث، ووقع قحط شديد، و تعسر الإتيان بالميرة لوقوع الحروب يومئذ"⁵، "فتدخل الباي بإرسال الشيخ أبا إسحاق إبراهيم بن عبد القادر الرياحي إلى السلطان المولى سليمان بن محمد، فحضر إلى فاس ومعه هدية وكتاب يتضمن طلب الإمداد بالحبوب بسبب الجفاف الذي حدث في تونس في تلك السنة... وأعجب السلطان بدهاء الشيخ إبراهيم الرياحي فقبل وأمده بالميرة وبهدية جلييلة"⁶.

وما تشهد له البلاد في هذه الأزمة أن الباي حاول أن يجعل المواطنين لا يشتكون من خصاصة الميرة فبالإضافة إلى جلبيه إياها من المغرب ، فقد أرسل أيضا إلى مناطق أخرى من البحر الأسود، ومنع صنع الكماليات مثل "البسقماط" BSCUITS والمعكرونة وما شابهها⁷. ثم يقوم ببيعها بأقل أثمانها، وغالبا ما يمنحها بدون مقابل للعاجزين الذين لا يستطيعون تسديد ثمن تلك الحبوب⁸.

كان لتلك المجاعة آثار سيئة على الأهالي إذ ساءت حالة التغذية لدى السكان، كما منعتهم من تجديد ذخائرهم السنوية⁹، والأسوأ من ذلك موت الآلاف منهم بسبب

(1782-1814م)

الجوع، كما أدت المسغبة إلى تراجع كبير في مجالي الزراعة و التجارة خاصة منها الخارجية، حيث استغلت الكثير من الدول الأزمة التي مرت بها تونس لفرض شروط صارمة مقابل تزويدها بالحبوب¹⁰.

وما تجدر الإشارة إليه أنه رغم هذه الظروف الصعبة التي كانت تمر بها البلاد، إلا أن الباي حمودة استطاع أن يتجاوز الصعاب ويتمكن من مواصلة مشروعه الإصلاحية، الذي بواسطته تسترجع البلاد رمقها وتحيي ما اندثر من قوتها¹¹، فحاول بكل الوسائل والطرق لإعادة إحياء الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

3. إصلاحات في قلب المجتمع :

3. 1. 3. غرس الفضائل الحميدة في المجتمع ومحاربة الذميمة منها:

3. 1. 1. 3. إبطاله للعادات البالية في المجتمع:

بقي المجتمع التونسي كغيره من المجتمعات الأخرى يعيش على مجموعة من العادات التي ضلت في اعتقاده واجبة عليه و إن لم يقم بها فإنها ستجلب له النحس و العار بين أفراد المجتمع، ولكن مع اعتلاء الباي "حمودة باشا" العرش أراد أن يضع خطة إصلاحية لتغيير بعض تلك العادات السيئة في المجتمع و إخراج الفرد من الأفكار و المبادئ الخاطئة التي كان يعتقدوها ومن بين ما العادات التي طلب القضاء عليها:

(1782-1814م)

3 . 1 . 2 . إبطاله لعادة كان يقوم بها أهل تونس في يوم عاشوراء:

كانت من عادة أهل تونس يقومون في ليلة عاشوراء بقصد التكسب إلى حمل ما يشبه برأس إنسان و يدورون به في الأزقة و الحارات بمشاعل و هم يصرخون. وعندما شاهد الباي ما كان يحدث من أمور خرافية في أوساط المجتمع طلب من العلماء أن يفتوا له في هذا ، فأفتى بعضهم في قولهم بأن هذا الفعل من أفعال الشيعة وهي من أهل البدع حيث يتذكرون فيه مصرع سيدنا الحسين رضي الله عنه في كربلاء وكان ذلك في عاشوراء¹².

3 . 1 . 3 . إبطاله لبدعة اللعب برؤوس قتلى الحرب الأجنب:

كان الأهالي التونسيين يقومون بجلب قتلى حروبهم و يقومون بنزع الرأس واللعب بها كالكرة وهذا ما وقع في حرب تونس مع البندقية سنة 1791م ، و لما وصل الخبر الباي استنكره ومنع القيام بمثل هذه الأعمال¹³.

3 . 1 . 4 . كسره لحجر كرسي الصلاح:

تخلص الباي من هذا الحجر الذي كان متواجدا بشاطئ بحر سيدي أبي السعيد والذي يطلق عليه اسم "كرسي الصلاح" حيث كان يقوم بعض الجهال كما يسميهم "ابن أبي الضياف" بالذبح فوق الحجر ورمي المذبوح إلى البحر.

(1782-1814م)

ولم يكن الباي ليترك مثل هذه الأعمال في مجتمع كان يريد فيه الصلاح، فقام في يوم الثلاثاء 10 شعبان 1227هـ / 18 أوت 1812م بالذهاب إلى ذلك الشاطئ وكسر الحجر بنفسه¹⁴ وكان ذلك بفتوى من العالم "أبي العباس محمد البارودي"¹⁵.

3. 1. 5 . إبطاله لبعض عادات الجالية السودانية المقيمة بتونس:

كان يعيش في تونس جالية من شعوب جنوب الصحراء¹⁶ ومن بينهم السودانيون الذين كانوا متمسكين بطقوسهم وعاداتهم الإفريقية، ونظرا لهذه الأعمال التي كانوا يقومون بها حيث لا علاقة لها بالعبقيدة الإسلامية، فقد قام "أحمد التنبكتاوي" بتحرير عارضة سنة 1800م قدمها للباي حمودة تحت عنوان: "هتك الستر عما كان عليه سودان تونس من الكفر"، ويذكر فيها أن السودانيون القاطنون بتونس يمارسون طقوسا غريبة كصلاتهم أمام النار و طريقة ذبحهم للحيوانات التي كانوا يشربون دماءها، و ممارستهم للسحر و الشعوذة، ويذكر أنه مهما اختلفت مذاهبهم و اختلفت أعمالهم وأسماء آلهتهم فإن معبودهم واحد هو الشيطان¹⁷. ونظرا لتعجب المؤلف من الأمور التي كانوا يقومون بها في بلد يدين بالديانة الإسلامية فقد طالب الباي بوجوب تصديه لهذه البدع، و يذكر في عارضته و هو يخاطب الباي أن تصديه لهذه الأفعال والقضاء عليها هو أكثر نفع بكثير من بناءه ألف مسجد أو مدرسة، بل هو أفضل من جهاد الكفار¹⁸.

3. 2 . تشدده في معاملته مع من يخل بالقيم والأخلاق:

(1782-1814م)

كانت تصدر من الأهالي بعض الأعمال المخلة و المنافية للأخلاق منها الزنا هذه الرذيلة التي تصدى لها الباي بشدة، وللمؤرخين ذكر لما قام به الباي في هذا الشأن، فقد كان الباي يقوم بحرق الزانية ورمي جثتها في البحر بعد أن تكون الجثة قد عرضت على عامة الناس لتكون عبرة للآخرين، أما الرجل فإذا كان مسلم فإنه يطبق عليه حكم قطع الرأس أما إذا كان غير ذلك فيحرق حيا¹⁹.

كما تصدى أيضا لشارب الخمر وبدأ بنفسه قبل تطبيق الإجراء على الآخرين، إذ منع على نفسه معاودة شرب الخمر وكان ذلك بعد الحادثة التي وقعت مع بعض جنود الجزائر لولا حكمة الوزير يوسف²⁰، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعاقب كل شارب للنيذ²¹، بالإضافة إلى ذلك انه كان كثير التشدد مع الأجانب الذي يستوردون الخمر لبيعه إذ كانوا يدفعون ضرائب باهظة حيث كانت تفوق سعر الخمر²²، لذلك لم يكن الباي يرغب بهذا النوع من البضاعة التي تتداول بين أفراد المجتمع لذلك فقد كان شديد القسوة مع من يقوم بتهريب الخمر أو بيعها²³.

3.3 . حثه على وجوب العمل و نبذه للبطالة:

كان حمودة باشا من المحبين للعمل و المشجعين على الكدّ و الجهد فإذا أراد أن يكون قدوة لشعبه فقد كان السباق إليها²⁴، فقد كان ينزل إلى الحقل ليباشر الفلاحة بيده ليقندي به غيره في مباشرة أموره²⁵. وقد ذكر ابن أبي الضياف هذه الخصلة الحميدة التي تميز بها الباي وقال فيه: "ويقول في مجالسه علنا و يشتهي أن ينقل عنه لا أبغض أحدا

(1782-1814م)

من أهل البلاد إلاّ البطلال الذي لا نفع فيه للوطن، و لو يرعى البقر²⁶، و ذكر أيضا أنه كان يكره التصدق على الفقير القادر على التكسب بيدنه ويقول أن طلب الرزق بالأسباب المتتهنة لا يكسبه معرّة، و لا مدلّة توازي مدلّة السؤال²⁷. إذن فقد كان الباي يطمح من وراء هذه التعاليم إلى غرس الصفات الحميدة في المجتمع و تعويد الفرد على التوكل على النفس و جلب قوت يومه بعرق جبينه.

3. 4 . حثه على وجوب النظافة وتحبيب المجتمع فيها:

اعتنى الباي بنظافة البلاد حتى يُعوّد شعبه على ضرورة التنظيف والاعتناء ببلادهم، فقد تخلص الباي من كل الأمور التي كانت تسبب الأوساخ وتعكر الجو نظيف في البلاد، فقد قام بنقل جميع الأنشطة التي كانت تسبب التلوث إلى خارج المدينة كالتي يستخدم فيها الأفران، مثل: ورشات صنع الأواني الفخارية التي يستخدم فيها الطين كمادة أولية، كما قام بنقل معاصر الزيت بجوار أبواب المدينة وذلك لتسهيل وصول المادة الأولية وتجنّب نقلها إلى داخل المدينة و ما يحدث من بعثرة الزيت في الأرض²⁸. ومن أعماله أيضا إزالته لأكوام كبيرة من الأوساخ التي كانت متراكمة منذ العهد الحفصي، ويذكر المؤرخ "عمر التونسي" ذلك الانجاز في قوله: "و رفع التلال التي كانت بين تونس و البحيرة، و قد كانت مثل الجبال العظيمة مانعة لجودة الهواء، يخشى على البلد منها، و هي من مدة دولة بني حفص، فاجتهد في نقلها في مدة سبع سنين، حتى ترك محلها مزرعة عظيمة، وكشف بذلك غمّة أهل تونس"²⁹.

(1782-1814م)

5.3. تزويد المدينة بالمياه:

ومن مظاهر اعتناؤه بالبلاد اهتمامه بضرورة تزويد المدينة بالمياه وكان ذلك من خلال بناء السقايات، فقد أمر ببناء سقاية باب سيدي عبد السلام والتي بنيت من طرف "يوسف صاحب الطابع" وكان ذلك سنة 1804م، كما قام ببناء عين سبالة بمدينة منوبة سنة 1793م³⁰. ولم يكن هذا بالجديد في الأسرة الحسينية فقد كانوا من بين الحكام الذين اهتموا بالمنشآت المائية التي توفر الرفاهية والراحة للسكان³¹.

3. 6. حسن معاملته مع شيوخ القبائل:

ومن بين مظاهر رغبته في إصلاح المجتمع اهتمامه بكل ضواحي البلاد إذ لم يكن كالحكام الذين يسيرون أمور المدينة ويجهلون ما يحدث في دواخل البلاد (الريف) إهمالا منهم، بل كان يستقبل في قصره وفود القبائل والعروش وأبناء الزوايا ويستمع لشكواهم ويجسّن إليهم. كما كان يتخذ من زعماء القبائل كجهاز مراقب على القياد في مواطنهم. أما المشايخ فهم الآخريين لقوا المعاملة الحسنة من طرف الباي ولم يكن يعزهم بمجرد طلب العامل (وهو مستخلص الضرائب) بأنه غير صالح، بل بإجماع أغلب سكان القبيلة³². كما أنه لا يعين أحدا على العرش إلا بموافقة أهل القبيلة³³.

وربما أجاز لنا القول أنه كان لإصلاح الجهاز الضريبي دور في تحسين العلاقات بين الحاكم والمحكوم أي أن المحلة أصبحت الركيزة الأساسية في الربط بين المجتمع والسلطة

(1782-1814م)

وجعل الطرفين يقتربان من بعضهما، فلم تعد المحلة ذلك الجهاز العسكري العقابي الذي عرف منذ العهد الحفصي وإنما تجاوز ذلك وأصبح بمثابة واسطة بين القوى والحكام وجعل السلطة قريبة ودائمة الحضور في الكثير من الجهات، ضف إلى ذلك أن المحلة كان لها الدور في حل النزاعات التي كانت تقع في العادة بين القبائل أو في القبيلة الواحدة³⁴. وبهذا يكون الباي حمودة قد وضع قاعدة يسير عليها كل من العامل وشيخ القبيلة، فالعامل يحرص الرعية من تعدي المشايخ، والمشايخ يحرصونها من تعدي العمال³⁵.

4. إصلاحات في الجانب الصحي :

شهدت تونس خلال فترة حكم الباي "حمودة باشا" أوبئة متتالية خلال سنوات 1784-1785-1790-1792-1794-1795-1797م³⁶ حيث أثرت سلبا على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد، فالواضح أن الوباء كلف الكثير بالنسبة للسكان، حيث كل من زار تونس في تلك السنوات يتألم لكثرة النعوش التي كانت تحمل الواحدة تلوى الأخرى، ومن بينهم "القس بوارى"³⁷ الذي زار تونس سنة 1785م فقد ذكر أنه كان يشاهد النعوش والقبور بكثرة، إلى درجة أن مدينة طبرقة أقامت مقبرتين جديدتين³⁸.

وأمام تفشي الوباء والظروف الصحية الصعبة التي مست المجتمع التونسي، كان لابد على الباي أن يتحرك، وكان ذلك باتخاذ الاحتياطات اللازمة الخاصة به وبرعيته. حيث حاول الباي الاحتياط والاحتراز من الوباء بكل الوسائل حيث اتخذ لنفسه طبييا خاصا

(1782-1814م)

يفحصه ويزوده بالنصائح، ومن ذلك الطبيب "ديفونتان" Desfontaine³⁹ الذي كان عنده في القصر أثناء حدوث وباء 1784م. والمثير للانتباه أنه أثناء بحثنا في هذا المجال لم نجد مصادر تذكر وجود أطباء في بلاط الباي من الأهالي التونسيين أو حتى من الأتراك حيث وجدنا جلهم أجنب. وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على نقص الاهتمام بالتكوين الطبي في فترة حكم الباي "حمودة باشا". و الجدول التالي⁴⁰ يبين الأطباء الذين كانوا في تونس في فترة حكم حمودة باشا.

اسم الطبيب	أصله	المدة التي خدم فيها الباي	معلومات أخرى
ديفونتان Desfontaine	من فرنسا	(1783- 1785م)	زار تونس سنة 1783م و أقام بها إلى 1785م و كان من ابرز علماء فرنسا ومتخصصا في علم النباتات، وكان من اللباي إلى درجة أنه صاحبه في الخروج إلى يكن ديفونتان طبيب الباي فقط بل كان للعديد من الناس.
قازو S. Gazzo	من البندقية	1784م	كان طبيب و مستشار الباي.

(1782-1814م)

كان طبيب الباي الخاص ، و قد بقي في غاية سنة 1814م.	1797م	من جنوة	مندريسي Mendrici
أقام فرانك في تونس حوالي ثمان سنوات (1814م)، عمل كطبيب للباي ثم كرئيس و أثناء إقامته في تونس لف كتاب تحت Description de la Tunisie	1806م	من هولندا لكنه فرنسي الاصل	لويس فرانك Louis Frank
عمل في خدمة حمودة باشا في هذه الفترة	1811م	نابلي- إيطاليا-	رونشي Ronchi

من خلال الجدول يتضح لنا أن الباي كان يهتم كثيرا بالجانب الصحي، والدليل على ذلك أنه كان يزود نفسه دائما بطبيب خاص و لاحظنا أنهم كانوا من جنسيات مختلفة.

أما فيم يخص الرعاية وللتقليل من انتشار الوباء بينهم ، أمر بتطبيق ما يعرف " بالحجز الصحي " "الكرنينية"⁴¹ ، وطلب بتعميم ذلك على كل من يصاب بالداء ، و حرق ثياب الموتى المصابين وإن اضطر الأمر يحرق كل ما يوجد في بيوت المصابين

(1782-1814م)

وغلقها⁴². ويعمل على تطبيق كل النصائح التي تقدم إليه، و من بينها النصيحة التي قدمها له بعض القناصل أثناء وباء 1785م و تستند إلى وجوب دفن الموتى على عمق يزيد عن المتر، لان هؤلاء لاحظوا أن الموتى الذين كانوا يدفنون تحت طبقة رقيقة من التراب تكاد تظهر جثثهم كما تنبعث منهم رائحة متعفنة⁴³.

أما فيما يخص إجراءاته لمنع تسرب العدوى من الخارج فقد أصدر الباي قرار مراقبة السفن و ركابها القادمون من الخارج ، و أمر بغسلهم في المقابر قبل أن يدخلوا البلاد . وليضمن عدم تفشي الوباء فقد فرض "الحجز الصحي" على المسافرين و عمم المراقبة على سلعهم و ثيابهم حتى يقلل من انتشار العدوى⁴⁴.

واستمرت احتياطات الباي إلى أكثر من ذلك إذ كل المناطق التي أصيبت بالوباء حاول القيام بعزلها بجواجز صحية لمنع انتشار العدوى⁴⁵.

5. إصلاحات في المجال الديني والفكري:

اهتم الباي بأمور الدين وحاول جاهدا أن يجعل البلاد محافظة على حلتها الدينية وثوبها الطاهر بطهارة الدين الإسلامي، فقد كان محبا للعلماء⁴⁶ يلجأ إليهم في الكثير من المسائل يسأل فتوهم والأمثلة عديدة منها طلبه من الشيخ "محمد بن حسين بيرم" أن يؤلف له كتابا في السياسات الشرعية⁴⁷ أي أن إحكام السياسة الشرعية في ذلك العصر كانت من اختصاص البايات أو من ينوب عنهم . وللباي أمثلة عديدة في القضايا التي

(1782-1814م)

فصل فيها بنفسه. كقضية المرأة الفقيرة التي جاءت إلى الباي تشكو بأنها لا تجد في بستانها من الغلة الناضجة، أي حسب كلامها هناك من يقوم بسرقة الغلة التي تنضج. فطلب الباي من المرأة أن تضع تحت كل حبة من التين التي أشرفت على النضج شعيرة، وأمر في الغد أن يجمع له التين الذي يؤتى به إلى السوق، فقام الباي بتقليب التين بنفسه فوجد بينهم تين المرأة فسأل عن صاحبه فتبين انه رجل اختلسه فقام بسجنه⁴⁸.

كما كان يفوض إلى وزيره يوسف صاحب الطابع الفصل في الكثير من القضايا التي ترفع إليه، إذ قال لأحد الرجال جاءه من ناحية منوبة شاكية بأن فرسه سرقت ليلا فقال له: "إرفع شكايته إلى صاحب الطابع، فإن يده خارج الحاضرة كيدي"⁴⁹.

وهناك شكايات أخرى أمر برفعها إلى ذوي الاختصاص:

- نوازل المتجر ترفع إلى مجلس التجارة.
- نوازل الفلاحة لأمنائها.
- الجنايات الخفيفة يباشرها الداوي بالحاضرة، وله صلاحيات تخوله بسجن الجاني في الكراكة⁵⁰ أو يضرب ثلاثمائة ضربة.
- ما خف من الأمور بضواحي الحاضرة كانت تحت إشراف كاهية دار الباشا.
- آغا القصبية يشرف على الحقوق الثابتة بالرسوم مثل الديون⁵¹.

(1782-1814م)

ولا يُرفع لحضرة الباي إلا ما عجز عليه هؤلاء. وبهذه التعاليم و الإصلاحات حاول الباي التوفيق بين المبادئ الشرعية الثابتة ومتغيرات السياسة ومستجداتها.

ومن جهوده في مجال الدين والشريعة بناءه لمسجد بالعاصمة الذي عرف باسمه. وكذلك تجديده لزواية سيدي عبد القادر بمدينة الحمامات وكان ذلك سنة 1798م. وبناءه لقبة أبي محمد عبد العزيز بمدينة المرسى. وفي سنة 1801م جدد الباب المنقوش للمصلى الذي بناه جده حسين بن علي في القيروان⁵². وإلى جانب المساجد الزوايا لم يغفل الباي عن الأوقاف والأحباس التي حضيت هي الأخرى بالعناية من طرفه. فحسب ما يذكره لنا صاحب "الإتحاف" إنه كان لأموال الأحباس والأوقاف شأن عظيم لدى الباي خاصة منها أوقاف الحرمين التي خصص لها صندوق خاص لا يقترب إليه احد غيره. وفي هذا السياق يروي لنا أنه حدث وأن طلب وزيره "صاحب الطابع" من الباي مبلغا من المال، ولم يكن الباي يملك ذلك المبلغ، فقال للباي: "نتسلفه من صندوق الحرمين و نردها إليك بعد عشرة أيام"، فاقشعرّ بدنه وقال له: "سألتك بالله أن تزيل هذا الخاطر من فكري، و ترك هذه المصلحة الضرورية التي أقدمتك على طلب السلف من مال الحرمين أهون عليّ، وأنا أخرج من سكنى الداي بالدار المعدّة لأمثاله، وهي من أوقاف الحرمين، بأجر معيّن لا يزيد ، وقد حالت الأسواق وزادت إيجارات العقار"، فكفّ الوزير عن ذلك⁵³.

ومن بين ما أبطله في المجال الفقهي والديني، هو الاعتماد في تحكيم أهلة الشهور على المذهب الحنفي، حتى أنهم كانوا يصومون أو يفطرون سرا إذا لم يكن ثبوت ذلك على

(1782-1814م)

المذهب الحنفي. فأمر الاعتماد على ثبوت الأهلّة والصوم والإفطار يكون استنادا إلى المذهب المالكي، قائلا في ذلك: "كلهم على هدّى من ربهم ورحمة، ويسعنا تقليد إمام دار الهجرة، لا سيما وأهل مذهبه أكثر أهل المملكة". وأمر القاضي المالكي أن يباشر ذلك، وبقي الأمر معمولا به من بعده⁵⁴.

أما الحياة الثقافية فلم تشهد الحيوية التي كانت عليه في العهود التي سبقت وسبب ذلك أن هناك من يرجع الأمر إلى الوباء الذي ضرب البلاد سنة 1784-1785م حيث قضى على الكثير من أهل العلم والفقهاء وحملة القرآن⁵⁵. حتى حركة الشعر شهدت كما قال أحد المؤرخين ما يشبه بالركود، إذ لم يكن حمودة يجالس الشعراء والأدباء كما كان يفعل أبوه⁵⁶ لأنه مقارنة بما كانت عليه الحياة الفكرية في عهد أبيه كانت أحسن بكثير، إذ بنى الكثير من المدارس وحبّس عليها أوقافا كثيرة⁵⁷ كما اهتم بالعلماء وطلبة العلم⁵⁸، وبلغ به الأمر إلى إعفاء الطلبة من الخدمة العسكرية⁵⁹.

وهذا ما يثبت إتباع الابن لسيرة أبيه في احترامه للعلماء ومعاملتهم بالحسنى، وخير دليل على ذلك إعفائهم من دفع عشور الحبوب لتوفير الخبز للعسكر" وألزم بذلك سائر الناس من الزوايا وغيرهم، لدفع أعشار حبوبهم بالرابطة، ولم يستثن إلا أهل المجلس الشرعي فقط" وكان ذلك سنة 1806م⁶⁰.

(1782-1814م)

6. الخاتمة :

وفي ختام دراستنا لا يسعنا الا أن نشيد بالجهود الإصلاحية التي قام بها الباي "حمودة باشا" (1782 - 1814م) لخدمة وطنه ورعيته ، اذ يعتبر من البايات الحسينيين الأوائل الذين سعوا إلى الإصلاح والتغيير، وبالتالي كانت أعماله وجهوده منطلقا وتمهيدا للإصلاحات التي تلت من بعده في عهد المشير "أحمد باي" (1837 - 1855م) والمشير "محمد الصادق باي" (1859-1882م) ووزيره خير الدين التونسي .

توصلنا إلى إن الباي اعترضه أثناء إصلاحاته أوضاعا وظروفا اجتماعية صعبة، لكن هذا لم يمنعه من رفع التحدي والمضي قدما في اصلاحاته ، إذ تحمل كل المشاق و الصعاب لتحقيق سياسته الإصلاحية ويذكر في هذا الشأن المؤرخ "ابن ابي الضياف" قائلا : "ضرب صفحا عن السرف و نعيم الحضارة، و عود نفسه تحمل المشاق، و مناعة الحرّ و القّر" ⁶¹ .

ألقت دراستنا أضواء جديدة سلطت على مساعي الباي وإصلاحاته التي نجحت إلى حد بعيد، وذلك ما يبرزه التحسّن الذي آل بإيالة تونس في الجانب الاجتماعي .

لقد كانت "لحمودة باشا" تدابير إصلاحية استهدفت تغيير بعض المظاهر الاجتماعية السيئة التي كانت سائدة في البلاد آنذاك كمكافحة الرذائل والعادات البالية ، وغرس العادات الحميدة في المجتمع .

(1782-1814م)

اكتشفنا أن الباي كان مهتما بالشؤون الصحية لرعيته، والدليل على ذلك تلك الإجراءات التي اتخذها لمواجهة الأوبئة التي ضربت الإيالة، كما أنه كان لا يتردد في الأخذ بالنصائح التي كانت توجه إليه من طرف أطبائه الخواص، وتطبيقها بحذافيرها.

وجدنا أن الباي كان مهتما بأمور الدين وحاول جاهدا أن يجعل البلاد محافظة على حلتها الدينية وثوبها الطاهر بطهارة الدين الإسلامي. أما الحياة العلمية والثقافية فلم تشهد الازدهار والحيوية كما شهدته في عهد والده علي باي (1759-1782م).

7. قائمة المصادر والمراجع - البيبليوغرافيا - :

7. 1. باللغة العربية :

• الكتب المطبوعة :

- 1/ ابن أبي الضياف أحمد، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب، تونس، 1999م، مج 2، ج3، ج8.
- 2/ الامام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814م)، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1980م.

(1782-1814م)

- 3/ ابن عمر التونسي محمد، تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، حققه وكتب حواشيه خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد ،راجعاه محمد مصطفى زيادة، الدار المصرية للتأليف و الترجمة ، مصر، 1965م.
- 4/ رمون أندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج ، ط1، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1991م .
- 5/ زيس سليمان مصطفى، آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي، مطبعة سابي، تونس، 1955م .
- 6/ السنوسي أبي عبد الله محمد بن عثمان، مسامرات الظريف بحسن التعريف ، تحقيق و تعليق محمد الشاذلي النيفر ، ط 01، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1994م، ج 1 .
- 7/ العامري محمد الهادي، تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الإزهار والذبول، الشركة التونسية للنشر والتوزيع ، تونس، بدون تاريخ النشر .
- 8/ عبد الوهاب حسن حسني، خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م .
- 9/ الغزي الهادي حمودة، الأدب التونسي في العهد الحسيني على عهد الحسينيين(1705- 1881م)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1973م .

(1814-1782م)

- 10/ فلنزي لوسات، المغرب العربي قبل احتلال الجزائر (1790-1830م)، نقله الى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس، 1946م .
- 11/ مخلوف محمد ابن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1929م ، ج2.
- 12/ المسعودي أبي عبد الله محمد الباجي، الخلاصة النقية في أمراء افريقية ، ط 02، مطبعة بيكار و شركائه ، تونس ، 1916م .
- 13/ الناصري أحمد بن خالد، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق و تعليق احمد الناصر، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 2001م، ج 7 .

• المقالات :

- 1/ ابن الخوجة محمد، "بمسند الرئاسة المذهبية الحنفية في الدولتين المرادية والحسينية"، مجلة الزيتونة، عدد3، 1939م.
- 2/ الإمام رشاد، "سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري"، المجلة التاريخية المغاربية ، عدد2، جويلية 1974م.
- 3/ التميمي عبد الجليل ، "من أجل كتابة تاريخ الحياة الاجتماعية -الأقلية الإفريقية السوداء- بالبلاد التونسية مصادر و آفاق"، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء

(1782-1814م)

العهد العثماني، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، الجزءان 1 و2، مركز الدراسات والبحوث العثمانية و المورسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1988م .

• الرسائل الجامعية :

1/ العيزري محمد الحبيب، ظاهرة الحكم المتحول في بلاد المغرب العربي الحديث، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث، الجزائر، 2006-2007م.

2/ محمدي رزيقة، إصلاحات حمودة باشا الداخلية وعلاقاته الخارجية بإيالة تونس (1782 1814م) ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر -2- ، 2011- 2012م .

6 . 2 . باللغة الفرنسية :

1/ Conor.M et Grand Champ.P , journal de l'ambassade de Sulaiman Aga a la cour de France :janvier-mai 1777, Tunis,I M P rapide,1917.

2/ Maggill Thomas , Nouveau voyage à Tunis, traduit de l'anglais avec des notes par M .Ragueneau de la Chesnaye,Paris, 1815.

3/ Marcel J.J , Discription de cette régence par le Dr Louis Frank ,ED Bouslama, Tunis,S.D .

4/ Pellegrin Arthur, histoire de la Tunisie depuis les origines jusqu'à nos jours, 2eme Ed ,S .A. P. I, Paris,1941.

(1782-1814م)

5/ Plantet Eugène, Correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la cour 1577-1830 ,T3, Alicane,Paris,1899.

8 . الهوانش:

¹ - رشاد الإمام: "سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري"، المجلة التاريخية المغربية، عدد02، جويلية 1974م، ص 83.

² - للاطلاع على محتوى الرسالة .،نظر : رشاد الامام : سياسة حمودة باشا في تونس (1782-1814م) ، منشورات الجامعة التونسية ، تونس ، 1980م ، جزء الملاحق .

³ - لمعلومات أكثر أنظر: رزيقة محمدي : إصلاحات حمودة باشا الداخلية وعلاقاته الخارجية بإيالة تونس (1782 1814م) ، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث ، جامعة الجزائر -2- ، 2011-2012م .
⁴ - محمد ابن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي ، بيروت، 1929م، ج2، ص 167 .

⁵ - إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ،الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1999م ، مج 2 ، ج3، ص 54 .

⁶ - أحمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق و تعليق احمد الناصر، منشورات وزارة الثقافة و الاتصال، 2001م، ج 7، ص ص 152،151.

⁷ - الإمام: سياسة حمودة باشا، مرجع سابق ، ص 259.

⁸ - نفسه .

⁹ - لوسات فلنزي: المغرب العربي قبل احتلال الجزائر(1790-1830م)، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار سراس للنشر، تونس، 1946م ، ص 34 .

(1814-1782م)

10 - M. Thomas Maggill : Nouveau voyage à Tunis, traduit de l'anglais avec des notes par M.Ragueneau de la Chesnaye, Paris, 1815 , p p 182 - 185.

11- محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الإزهار والذبول، الشركة التونسية للنشر والتوزيع ، تونس،(د.ت)، ص 293 .

12 - ابن أبي الضياف : مصدر سابق ، ج 3 ، ص 50 .

13 - الامام : سياسة حمودة باشا ، مرجع سابق ، ص 309.

14 - ابن أبي الضياف: مصدر سابق ، ج 3، ص 80.

15- هو أبو العباس أحمد ابن الشيخ الإمام المفتي أبي عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام المفتي أبي عبد الله الحاج حسين البارودي، نشأ على يد أبيه الذي أخذ عليه علوم الفقه النحو والعبادات، وعمل خطيباً في الجامع الحسيني المعروف بالجامع الجديد "وكان فاضلاً خيراً، عفيفاً سليم الصدر، حسن اللقاء، مطبوعاً على الجد، حافظاً لمروءة الخطة وزيتها، حسن الصوت بتلاوة القرآن ، ولخطبه تأثير في الأذان، يوقظ القلب الوسنان، ما شئت من حسب توارثه الكابر عن الكابر... "وكان أول من لقب بالباش المفتي توفي (1273هـ/1856م). أنظر: نفسه، مج 4 ، ج 7، ص 101. وأيضاً: محمد بن الخوجة: "بمسند الرئاسة المذهبية الحنفية في الدولتين المرادية و الحسينية" مجلة الزيتونة، عدد3، 1939م، ص 418.

16- من بينهم شعوب غات ، غدامس، والسودان و... وكانوا إما طلبة أو عميد أو رحالة وقدر عددهم حوالي سبعة آلاف. أنظر: عبد الجليل التميمي: "من أجل كتابة تاريخ الحياة الاجتماعية-الأقلية الإفريقية السوداء- بالبلاد التونسية مصادر وآفاق"، الحياة الاجتماعية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، الخزائن 1 و2 ، مركز الدراسات والبحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1988م، ص 201.

17- للاطلاع على نص الرسالة أنظر : الإمام، مرجع سابق ، ص ص 324-326 .

18- التميمي، مرجع سابق ، ص 201.

19 -Arthur Pellegrin: histoire de la Tunisie depuis les origines jusqu'à nos jours, 2eme Ed ,S .A. P. I, Paris,1941, p101.

20- للمزيد من المعلومات حول هذه الحادثة. أنظر: الإمام ، سياسة حمودة باشا، مرجع سابق ، ص 110.

(1782-1814م)

²¹ -J.J Marcel, Description de cette régence par le Dr Louis Frank ,ED Bouslama, Tunis,(S.D), p 71 .

²² - الإمام ، سياسة حمودة باشا ، مرجع سابق ، ص 308.

²³ - Marcel, op.cit, p p 83,84.

²⁴ - هنا يمكننا أن نستدل بما قام به "حمودة باشا" ، حيث رفض لبس الطيلسان المستورد وأمر أن يأتوا له بطيلسان محلي ثم ما لبث أن لبس رجاله كلهم الطيلسان المحلي .أنظر : ابن أبي الضياف : مصدر سابق ، ج 3 ، ص 101 .
²⁵ - نفسه ، ص 102.

²⁶ - نفسه .

²⁷ - نفسه

²⁸ - أندريه رمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع ، القاهرة ، ط1، 1991م، ص 144 .

²⁹ - محمد بن عمر التونسي: تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، حققه وكتب حواشيه خليل محمد عساكر ومصطفى محمد مسعد، راجعه محمد مصطفى زيادة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، 1965م، ص 24.

³⁰ - سليمان مصطفى زيس: آثار الدولة الحسينية بالقطر التونسي، مطبعة سابي، تونس، 1955م ، ص ص 25 - 27 .

³¹ - رمون: مرجع سابق ، ص 121.

³² - ابن أبي الضياف: مصدر سابق ، ج 3 ، ص 109.

³³ - نفسه، ص 26.

³⁴ - محمد الحبيب العزيري: ظاهرة الحكم المتحول في بلاد المغرب العربي الحديث، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث، الجزائر، 2006-2007م ، ص ص 489-493.

³⁵ - ابن أبي الضياف، مصدر سابق ، ج 3 ، ص 110.

³⁶ - للتوسع أكثر أنظر : محمدي ، مرجع سابق .

(1782-1814م)

³⁷- قضى القس بوارى مدة سنتين في تونس، وأثناء تواجده هناك كان يرسل زميلا له في جامعة الصربون وقد كتب له حوالي 29 رسالة وكان يدون في رسائله كل ما يراه و يشاهده أثناء إقامته هناك . أنظر: الامام: سياسة حمودة باشا، مرجع سابق ، ص28 .

³⁸- نفسه ، ص 259 .

³⁹- نفسه، ص 311 .

⁴⁰- لإعداد الجدول اعتمدنا على المصادر التالية:

-Eugène Plantet, Correspondance des beys de Tunis et des consuls de France avec la cour 1577-1830 ,T3, Alicane,Paris,1899, p p 257,325,496,497.

- Maggill , op . cit , p p 96,97.

- Marcel , op.cit , p p 4 , 5.

⁴¹- هي كلمة لاتينية الأصل نسبة إلى العدد « Quarante » أي المدة الصحية التي يتم فيها حجز المريض.

⁴²- ابن أبي الضياف، مصدر سابق ، ج3 ، ص 21 .

⁴³- Marcel :op.cit, p p 11,13.

⁴⁴- M . Conor et P .Grand Champ : journal de l'ambassade de Sulaiman Aga a la cour de France :janvier-mai 1777, Tunis,I M P rapide,1917 , p 271 .

⁴⁵- فلنزي: مرجع سابق ، ص 30 .

⁴⁶- مخلوف: مصدر سابق ، ص 167.

⁴⁷- هي عبارة عن مجموعة من الفتاوى الشرعية أصدرها محمد بريم بطلب من الباى حمودة ، ونستطيع القول أن الرسالة تعدّ مشروعا أوليا لمجلة متخصصة في الإجراءات القانونية ، حاول فيها صاحبها تقنين أحكام السياسة الشرعية بالاستناد الى فتاوى الفقهاء وآرائهم .
أنظر: الامام : مرجع سابق، ص 17.

(1814-1782م)

- 48- أبي عبد الله محمد بن عثمان السنوسي: مسامرات الظريف بحسن التعريف ، تحقيق و تعليق محمد الشاذلي النيفر، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط 1، 1994م، ج1، ص ص 118، 119 .
- 49- ابن أبي الضياف: مصدر سابق ، ج3 ، ص 62 .
- 50- كلمة تركية تعني سجن في ميناء حيث يسجن فيه المحكوم عليه بالأشغال الشاقة. أنظر: ابن أبي الضياف : مصدر سابق ، ج3 ، ص 107 ، هامش 123 .
- 51- نفسه .
- 52- زيبس: مرجع سابق، ص ص 11-13، 18-20.
- 53- ابن أبي الضياف: مصدر سابق ، ج 3، ص 113.
- 54- نفسه، ص 114.
- 55- مقديش: مصدر سابق ، ص 188.
- 56- الهادي حمودة الغزي: الأدب التونسي في العهد الحسيني على عهد الحسينيين(1705- 1881م)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1973م، ص 48.
- 57- أبي عبد الله محمد الباجي المسعودي: الخلاصة النقية في أمراء افريقية ، مطبعة بيكار و شركائه ، تونس، ط 2، 1916م، ص 132.
- 58- حسن حسني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968م ، ص 187.
- 59- الإمام، مرجع سابق، ص 329.
- 60- ابن أبي الضياف: مصدر سابق ، ج 3، ص 54.
- 61- نفسه .